المعتقدات القديمة وأثرها في التفكير الإسلامي

د. محمد المداعي صالح
كلية الآداب – جامعة التحدي

تمهيد:

لقد دخلت الفلسفة « إلى المسلمين في القرن الأول للهجرة لمَّا فتحوا بلاد الأعاجم، لكنها لم تكثر فيهم ولم تشتهر بينهم لما كان السلف يمنعون من الخوض فيها، ثم اشتهرت في زمن البرمكي ثم قوي انتشارها في زمن المأمون ؛ لِما أثاره من البدع وحث عليه من الاشتغال بعلوم الأوائل وإخماد السنة »[1]، ففشا الاشتغال بالفلسفة اليونانية بعد تلاوة القرآن وسماع الأحاديث النبوية، فظهر التفرق والاختلاف، وذلك أن الناس « متى تركوا الاعتصام بالكتاب والسنة فلابدَّ أن يختلفوا »[2] ويتفرقوا .

وبدأ الفكر الفلسفي اليوناني يستحوذ على عقول الكثير من رعايا إمبراطورية الروم والفرس، وكان بدهياً بعد انتشار الإسلام إبان الفتوحات في هاتين الإمبراطوريتين أن يحدث تسرب وتأثر ثقافي وفلسفي خصوصاً وأن المدارس الفلسفية اليونانية كانت قائمة بالفعل، وأشهرها « جند يسابور[3]، وحران[4]، والإسكندرية وغيرها كانت مراكز للتأثير النصراني وذلك أن أكثر القائمين على هذه المراكز كانوا من النصارى»[1] .

([1]) السيوطي : صون المنطق ، تحقيق : علي سامي النشار ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ص12 .
([2]) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، ط1 ، الرياض ، ج5 ، ص284 .
([3]) جند يسابور : مدينة في خوزستان أنشأها سابور الأول الساساني وأسكنها سبي الروم ، اشتهرت بمدرستها الطبية التي أنشأها كسرى الأول ، حيث كانت تدرس فيها علوم اليونان ، وقد بقيت هذه المدرسة حتى العهد العباسي . معجم البلدان ، ج2 ، ص170 - 171 . معجم ما استعجم ، ج2 ، ص397 . الروض المعطار ، ص173 - 174 . دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص359 - 360
([4]) حران : مدينة من ديار مضر ، قديمة عتيقة ، لا يُدرى متى بُنيت ، وهي مدينة الصابئين ، وفيها مجمعهم

وقد ساهمت ترجمة التراث اليوناني إلى العربية في هذا التأثر بالفلسفة اليونانية إلى حد كبير « والفكر اليوناني الذي انتقل إلى العربية من خلال الطريق الفارسي كان مشبعاً بروح الزرادشتية »[2]، والمذاهب الفارسية « مما جعل للأثر الفارسي الدور الهام في ظهور طوائف الباطنية وغلاة الشيعة والقرامطة وغلاة الصوفية »[3].

ولقد « كان الفكر الإغريقي وثنياً، لكن هذا لم يمنع سقراط من السخرية من الآلهة، والاستهزاء بها حتى وصل به الأمر إلى المحاكمة فالإعدام . أما أفلاطون فالله عنده روح عاقل محرك منظم خير عادل كامل بسيط لا تنوع فيه »[4].

« والكون قطعة فنية رائعة لم توجد اتفاقاً »، بل لابدَّ من علة وراء ذلك بينما الإله عند أرسطو هو المحرك الذي لا يتحرك وهو برئ من المادة، وجوهر محض . وكان الفكر الأرسطي مصدراً ثرياً لمختلف الفلاسفة في شتى العصور لكثير من المعلومات في هذا الميدان . وأما أفلوطين صاحب التاسوعات، فقد ابتكر نظرية الفيض، وهي تفسر كيف تصدر الموجودات عن الواحد، ومدى طبيعة هذا الصدور . وبالجملة فقد أثر عن الفلسفة اليونانية أدلة كثيرة على وجود الله منها دليل الحركة، ودليل النظام البادي على الكون، وما يطرأ على المحسوسات من تفاوت وتغير، ودليل الغائية، وقد كان لهذه الأدلة صداها عند مفكري الإسلام[5] ومنهم أبو منصور الماتريدي .

يدرسون فيه الفلسفة وعلم النجوم ، وهي على طريق الموصل والشام . معجم البلدان ، ج2 ، ص235 - 236 الروض المعطار ، ص191 - 192 . وانظر : درء تعارض العقل والنقل ، ج1 ، ص313 .

([1]) انظر: دراسات في الفكر الفلسفي للألوسي، ص93 - 95. والفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي لعطوان، ص27. ودراسات في الفرق لعرفان عبدالحميد، ص143- 144. وأدب المعتزلة، ص109- 110، 113. والحضارة الإسلامية لمتز ، ص373 -374. وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدي بور، ص48 -49 . وتاريخ العرب لفيليب حتى ، ج2، ص552. ونشأة الفكر الفلسفي للنشار، ج1 ، ص92 - 93 .

([2]) أتباع زرادشت ، وهو رجل من أهل أذربيجان ، ظهر أيام بشتاسف بن لهراسف ، وادّعى النبوة ، فآمن به بشتاسف ، فأظهر الزرادشتية في العالم ، وهي فرقة من فرق المجوس القائلين بالنور والظلمة . راجع : الملل والنحل للشهرستاني ، ص110 - 111 . واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ، ص134 - 137 . والتفكير الديني في العالم قبل الإسلام ، د. رؤوف شلبي ، ص332 - 341 .

([3]) الألوسي : دراسات في الفكر الفلسفي ، ص98 - 100 . أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج1 ، ص138

([4]) يوسف كرم : الفلسفة اليونانية ، ص83 .

([5]) الغالي : أبو منصور الماتريدي وأراؤه العقدية ، ص83 .

وقد ساعد التسامح الديني في البلاد المفتوحة بكفالة المسلمين للأديرة والكنائس التي تعتبر المجامع العلمية التي تدرس فيها الفلسفة اليونانية «ومما يثبت اتصال المسلمين بأصحاب هذه الأديرة وجود مخطوطات سريانية من هذا العهد، فيها جانب كبير من نقاش المسلمين لعقائد المسيحيين خاصة، وردّ هؤلاء الأخيرين على المسلمين »[1].

ولقد أدّت حركة الترجمة دورها في نقل التراث الحضاري اليوناني إلى المسلمين، وبلغ هذا العمل ذروته في العهد الأموي، وقد أنشأ المأمون وهو من خلفاء الدولة العباسية البارزين « مركزاً رسمياً للترجمة في سنة 217هـ في بيت الحكمة، جعل على رأسه حنين ابن إسحاق . ولم يقتصر الأمر على التراث اليوناني بل تعداه إلى ترجمة كتب بيزنطية وفهلوية وفارسية وسريانية »[2].

وهكذا شاعت آراء الكثير من الفلاسفة في هذا العصر بين المسلمين خاصة أرسطو الذي أطلقوا عليه لقب المعلم الأول، وبدأت مشاكل فلسفية تعرض على الفكر الإسلامي كالجوهر، والعرض، والطفرة، والتولد، فكان لابدَّ للمتكلمين ومن بينهم أبو منصور الماتريدي من الاهتمام بهذه المسائل والاطلاع عليها لأنها تخوض في ميدان حساس كميدان الإلهيات . وإذا تصفحت (كتاب التوحيد) ألفيته زاخراً بالردود على أصحاب الطبائع[3]، وأصحاب الهيولي [4]، والفلسفة السوفسطائية[5]، والمقولات لأرسطو[6].

عامل الترجمة:

عندما توسعت الفتوحات الإسلامية وشملت أقطاراً عديدة من البلدان كانت تلك الأقطار ذات حضارات فكرية متعددة ... حدث الاحتكاك الفكري بين المسلمين وبين أصحاب تلك الحضارات ... وبعبارة أخرى حدث اتصال بين الإسلام وتلك الحضارات، حيث اطلع المسلمون بعد نقل تراث

([1]) د. علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، دار المعارف ـ القاهرة ، ط2 ، 1967م ، ص463 .
([2]) البارون كاردفو : ابن سينا ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، 1970م ، ص55 وما بعدها
([3]) الماتريدي : التوحيد ، تحقيق : فتح الله خليف ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، 1970م ، ص89 ، 116 ، 121 ، 141 ، 144 ، 145 .
([4]) المصدر نفسه ، ص24 ، 63 ، 67 ، 86 ، 120 .
([5]) المصدر نفسه ، ص153 وما بعدها .
([6]) المصدر نفسه ، ص147 .

تلك الحضارات إلى اللغة العربية عن تلك الحضارات، وكان لهذا الاتصال أثره الذي يتضح فيما قبله المسلمون من تلك الأفكار والعلوم التي اطلعوا عليها أو فيما رفضوه وردوا عليه من تلك الأفكار والعلوم وعدّوه مخالفاً لعقيدة الإسلام ... لقد انتقل التراث اليوناني إلى المشرق ... وانتشرت مراكز البحث الفلسفي في البلاد التي فتحها المسلمون ... فنجد مكتبة الإسكندرية قد امتدّ نشاطها وقت فتح العرب لمصر ... وقد كانت المدرسة اليونانية الوحيدة في البلاد التي غزاها العرب في دفعتهم الأولى..ولقد أثبت (ماكس مايرهوف) كذب قصة إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية[1]. ولا يستبعد أن تكون مكتبة الإسكندرية قد قامت بدورها في نقل العلوم إلى العرب .

« ولقد نفذت المعارف اليونانية إلى المشرق قبل الإسلام ... وذلك في المناطق التي تتكلم السريانية والفارسية ... فكانت مدرسة الرها ونصيبين وبعض المدارس التي كانت موجودة في الأديرة ... ولقد كان معظم التعليم في هذه المدارس تعليماً دينياً يتصل بالنصوص المقدسة، لكنه كان يوجد أيضاً تعليم آخر يتصل بالأمور الدنيوية، وكان الأطباء يعظمون مؤلفات بقراط وجالينوس وأرسطو »[2].

ومدرسة حران وهي قريبة من الرها كان لها مكان ولاسيما بعد الفتح العربي ... واتصلت وثنية الساميين القديمة بالأبحاث الرياضية والفلكية وبنظريات المذهبين الفيثاغورسي الجديد والأفلاطوني الجديد .

وكان الحرانيون وهم يسمون بالصابئة على اتصال وثيق بعلماء الفرس والعرب من القرن الثامن إلى العاشر الميلادي (الثاني إلى الرابع من الهجرة) وكان لهم دور في الترجمة. ومدرسة جند يسابور التي أسسها كسرى أنوشروان (531 ــ 579م) في فارس ــ كما ذكرنا سابقاً ــ وكانت معهداً للدراسات الفلسفية والطبية، وقد استقبل كسرى سبعة من فلاسفة المذهب الأفلاطوني الجديد بعد هروبهم، بعد أن أغلق جوستنيان مدرسة أثينا عام 529م .

([1]) ماكس مايرهوف : من الإسكندرية إلى بغداد ، ترجمة : د. عبد الرحمن بدوي ، (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ، ص37 - 38 .

([2]) دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة : د. عبد الهادي أبوريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1957 ، ص17 .

وعندما فتح المسلمون بلاد الفرس ونقلوا معارفها، كان من بين ما نقلوه هذه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

وقام السريان بدور الترجمة لهذا التراث اليوناني من اليونانية إلى السريانية منذ القرن الرابع الميلادي وحتى القرن الثامن الميلادي، وترجموا مجموعات من الحكم الأخلاقية وصبغوها بصبغة مسيحية، ولكنهم ترجموا الكتب المنطقية والطبية والطبيعية بأمانة . ولم تكن الفلسفة التي ترجموها يونانية قديمة وحدها، وإنما كانت مخلوطة بشروح المتأخرين من الأفلاطونية الحديثة، وهذه الفلسفة التي ترجمها السريان عرفها المسلمون، وذلك بعد أن أفتى يعقوب الرهاوي بأنه يجوز للقسس المسيحيين أن يقوموا بتعليم أبناء المسلمين[1].

وقد بدأت حركة الترجمة لهذا التراث إلى العربية في عهد خالد بن يزيد ابن معاوية الذي يسميه (ابن النديم) حكيم آل مروان، ويذكر أنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون مدينة مصر، وقد تفصحوا بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة[2]. وقد توالت حركة الترجمة إلى اللغة العربية وازدهرت أيام العباسيين من خلافة أبي جعفر المنصور والمأمون وحتى منتصف القرن الرابع للهجرة[3]. ذكر ابن النديم الكتبَ التي ترجمت لأفلاطون وأرسطو وأسماء المترجمين لها[4].

وعلى الرغم من تشجيع الخلفاء العباسيين لحركة ترجمة هذه العلوم إلاّ أنها لم تجد قبولاً من كل المسلمين، لاسيما أهل السنة المتشددين « لقد كان مما نقل من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة ما هو خاص بالتنجيم فحاولوا أن يوجدوا مجالاً للاعتراف بعلم التنجيم في داخل الإسلام بقولهم: إن (القدر) هو موجبات أحكام النجوم، و(القضاء) هو علم الله السابق بما يوجبه أحكام النجوم .

---

(1) دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ص19 .

(2) ابن النديم : الفهرست ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ، ص338 .

(3) سانتلانا : تاريخ المذاهب الفلسفية ، ص192 - 193 .

ويذهب الأستاذ بول كروس إلى أن المترجم للكتب المنطقية ليس عبد الله بن المقفع ولكنه ابنه محمد بن عبد الله . انظر : التراجم الأرسطوطالسية المنسوبة إلى ابن المقفع . بول كروس : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، ترجمة : د. عبد الرحمن بدوي ، ص101 - 120 .

(4) انظر : ابن النديم : الفهرست ، ص343 - 352 .

ولقد وقف علماء الكلام إزاء التنجيم موقف الإنكار ؛ وذلك لأنهم رأوا أن التسليم بأن للنجوم تأثيراً في أحداث الكون إنكاراً للمبدأ الرئيس القائل بأن الله هو العلة الوحيدة والمباشرة لكل الأحداث . ونجد في هذا الموقف اتفاقاً بين سائر المتكلمين من معتزلة وأشاعرة[1] وماتريدية . وتبيّن من ذلك أن مهمة أوائل المتكلمين كانت استبعاد الفلسفة اليونانية من دائرة الدين .

الله عند المسيحيين:

انقسم المسيحيون حول الألوهية إلى فرق، منها من يؤمن بحرفية النص، ومنها عقلية تبالغ في التأويل وتعظم سلطان العقل « وفي مسألة عيسى والمسيح، وجد أن الإنجيل وصف المسيح بأنه (ابن الله كما وصفه بأنه كلمة الله)، ثم في موضوع آخر منه جعل عيسى هو المسيح »[2]. ويحكي ذلك أيضاً القرآن الكريم في قوله: { إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ }[3]. وقد بدأ الجدل بين المسيحيين في أن عيسى ابن الله وأنه كلمته .

ولقد لجأ (أوريجنس)[4] ــ وهو الزعيم الذي تُنسب إليه المدرسة الدينية العقلية ــ في تفسيره للكلمة بتفويض المعنى في ذلك إلى الله شأن المفوضين من علماء الدين ؛ لأن التفويض يؤول إلى التخرج والابتعاد (عن التأويل)، كما لم يذهب إلى الشرح الحسي ؛ لأن هذا الشرح ــ وهو عبارة عن الأخذ بما تبادر إلى الذهن من اللفظ والعبارة ــ ليس تأويلاً ولا عملاً عقلياً عميقاً .

([1]) جولد تسيهر : موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل ، ترجمة : د. عبد الرحمن بدوي ، (التراث اليوناني) ، ص143 - 147 .

([2]) د. محمد البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، ط2 ، 1962 ، ص83 .

([3]) سورة آل عمران ، الآية : 45 .

([4]) عاش في القرنين الثاني والثالث الميلاديين (185 - 254م) ، وهو الزعيم الذي يُنسب إليه الاتجاه الفلسفي في المسيحية ، وقد شرح الإنجيل شرحاً حرفياً للعامة والمبتدئين ، وشرحاً أخلاقياً للمتقدمين ، وشرحاً رمزياً صوفياً للخاصة ، وهذا الشرح الأخير هو ما يُعرف (بالشرع الإشراقي) ، ويُعرف عند المسلمين بالحكمة الإشراقية . د. البهي : الجانب الإلهي ، ص82 .

ولذا عندما تناول ابن الله بالشرح، حمل بنوة المسيح لله، وأبوة الله للمسيح على المعنى المجازي، وهو قرب المنزلة، ومعنى أن المسيح ابن الله حينئذ هو أنه قريب من الله في الدرجة والمنزلة، وأن منزلته تلي في الوجود منزلة الله .

وهذا المعنى مما تحتمله اللغة وورد به الاستعمال اللغوي، فالبنوة والأبوة كما تحمل على المعنى الحقيقي ــ وهو المتبادر من اللفظ، تحمل على معنى آخر ثانوي ــ كهذا المعنى غير المتبادر منه الذي يُسمى في العرف اللغوي معنى مجازياً .

وكذلك عندما وصل إلى كلمة الله في الشرح، لم يرد بالكلمة (اللفظ والعبارة) كما هو المتبادر، بل أراد بها معنى آخر نفسياً وهو العقل (Logos)، وذلك أيضاً في حدود اللغة، والمسيح بعدئذ هو عقل الله . وبانضمام هذا إلى المعنى الذي أريد من كونه ابن الله ــ وهو القرب في المنزلة ــ ليصبح المسيح هو عقل الله القريب منه، أي الذي يكون في الوجود المرتبة الثانية بعد الله . والله والمسيح إذن، أو الله وابنه، أو الله وكلمته، أزليان قديمان ؛ لأن العقل الإنساني في اللحظة التي يتصور فيها وجود الله، يتصور أيضاً وجود كلمته معه، فليس وجودها مسبوقاً بفترة من الزمن، والفلسفة الإغريقية، وعلى الأخص الأفلاطونية منها، هي التي حملت (أوريجنس) على التأويل على هذا النحو . وإذا كان عيسى قد عبر عنه بالمسيح وجعل مساوياً له، فمعنى ذلك في شرح أوريجنس أن المسيح الذي هو كلمة الله أو عقله حل في عيسى الإنسان، والمسيح بهذا المعنى بدا في شخص عيسى، وعيسى بناء على ذلك إنسان إلهي: صورته الخارجية صورة إنسان، وطبيعته الداخلية مما ينتمي للإله . فهو طبيعة مركبة من طبيعتين امتزجا وصارتا طبيعة واحدة، هو مركب من الناسوت واللاهوت، أو الإنسانية والإلهية .

وسواء اعتقد أوريجنس بحقيقة هذا الحلول، أم جعله عنواناً فقط على تميز عيسى عن الإنسان العادي، فقد أثر عنه على العموم القول بحلول المسيح في عيسى، أي بحلول الجزء الإلهي في شخص عيسى الإنسان .

والتوجيه الأخير في شرح حلول المسيح في عيسى، مال إليه آريوس ونسطور من بعد أوريجنس، وهم جميعاً من زعماء الاتجاه العقلي

في شرح الدين . ورموا من عقيدة الحلول هذه أن ترتفع زعامة عيسى ورسالته الدينية، وتتصور طاعة المؤمنين له باعتباره المثال الذي يُحتذى، كما أوصت بذلك المسيحية .

وعند هذا الحد من الشرح لعقيدة المسيح وعيسى، استمرت المدرسة العقلية المسيحية حتى آخر القرن الرابع الميلادي[1].

« وقد قالت الملكانية من فرق النصارى أن كلمة الله اتحدت بجسم المسيح وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس، أقنوم الحياة، وصرحوا بأن الجوهر غير الأقانيم، وذلك كالموصوف والصفة وعن هذا أثبتوا التثليث»[2] وهي فرقة نصية تثبت الصفات لله تعالى .

والنسطورية فرقة بالغت في استعمال العقل والاعتماد عليه كالمعتزلة وتصرفت في الأناجيل بالرأي، وقالت إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو[3]، ومن النسطورية من ينفي التشبيه، ويثبت القول بالقدر خيره وشره من العبد، كما قالت القدرية[4].

وأما اليعاقبة فقد قالوا بالأقانيم الثلاثة، إلاّ أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو هو .

وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ }[5]. وفي آية أخرى: { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ }[6]. وكان بين هذه المذاهب جدل عنيف في العقائد[7].

([1]) د. محمد البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، ص83 - 85 .
([2]) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1968، ج2، ص27
([3]) الشهرستاني : الملل والنحل ، ج2 ، ص22 .
([4]) المصدر السابق ، ج2 ، ص30 .
([5]) سورة المائدة ، الآية : 72 .
([6]) سورة النساء ، الآية : 171 .
([7]) والنصارى فرق منهم أصحاب أريوس وكان قسيساً بالإسكندرية ومن قوله التوحيد المجرد وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق وأنه كلمة الله تعالى بها خلق السموات والأرض ، وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية وأول من تنصر من ملوك الروم وكان على مذهب أريوس . ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي وكان بطريركاً بأنطاكيا قبل ظهور النصرانية وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح وأن عيسى عبدالله ورسوله كأحد الأنبياء

وقد دخل مذهبان من هذه المذاهب في البلاد العربية قبل الإسلام وهما النسطورية واليعاقبة، وكان الأولون في الحيرة، والآخرون في الشام[1].

ولا « يشك باحث فيما للنصارى من أثر عظيم في ظهور الانحرافات العقدية في الأمة الإسلامية . فقد كان النصارى أصحاب فلسفة ولهم عناية كبيرة بالجدل في العقائد . وقد وصل تأثير معتقداتهم إلى المسلمين ؛ لأن كثيراً منهم دخلوا في الإسلام وهم يضمرون الحقد عليه — شأنهم في ذلك شأن اليهود قبلهم — وعلى أهله، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر . كما أن الانتقال من دين إلى دين حتى وإن كان حقيقياً لا يلغي جذور الاعتقادات الأولى، لذلك فإن مسائل الكلام والجدل انتقلت معهم بعد إسلامهم، يضاف إلى ذلك أن الإسلام كان يقبل بقاء أهل الكتاب على اعتقادهم، إذا ما دفعوا الجزية .

وأما طريق وصول أفكارهم إلى المسلمين، فكانت عن طريق الاتصال الشخصي والمخالطة وعن طريق المناقشات والمناظرات »[2].

عليهم السلام خلقه الله تعالى في بطن مريم من غير ذكر وأنه إنسان لا إلهية فيه وكان يقول لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس . وكان منهم أصحاب مقدونيوس وكان بطريركاً في القسطنطينية وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه وكان من قول مقدونيوس هذا التوحيد المجرد ، وأن عيسى عبد مخلوق= = إنسان نبي رسول الله كسائر الأنبياء عليهم السلام وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله عز وجل وأن روح القدس والكلمة مخلوقان خلق الله كل ذلك . ومنهم البربرانية وهم يقولون إن عيسى وأمه إلهان من دون الله عز وجل ، وهذه الفرقة قد بادت وعمدتهم اليوم ثلاث فرق فأعظمها (فرقة الملكانية) وهي مذهب جميع ملوك النصارى ، حيث كانوا حاشى الحبشة والنوبة ومذهب جميع نصارى أفريقية وصقلية والأندلس وجمهور الشام ، وقولهم إن الله تعالى عبارة عن ثلاثة أشياء أب وابن وروح القدس كلها لم تزل وأن عيسى عليه السلام إله تام وإنسان تام كله ليس أحدهما غير الآخر وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك وأن مريم ولدت الإله والإنسان وأنهما معاً شيء واحد ابن الله ، تعالى الله عن كفرهم .

وقالت النسطورية مثل ذلك سواء بسواء ، إلاّ أنهم قالوا إن مريم لم تلد الإله وإنما ولدت الإنسان وأن الله تعالى لم يلد الإنسان وإنما ولد الإله ، تعالى الله عن كفرهم ، وهذه الفرقة غالبة على الموصل والعراق وفارس وخراسان وهم منسوبون إلى نسطور وكان بطريركاً بالقسطنطينية .

وقالت اليعاقبة إن المسيح هو الله تعالى نفسه وإن الله تعالى عن عظيم كفرهم مات وصلب وقتل وإن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر والفلك بلا مدير ، ثم قال ورجع كما كان ، وإن الله تعالى عاد محدثاً وإن المحدث عاد قديماً وإنه تعالى هو كان في بطن مريم محمولاً به ، وهم في أعمال مصر وجميع النوبة وجميع الحبشة وملوك الأمتين المذكورتين .

راجع : ابن حزم الظاهري : كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، المطبعة الأدبية بمصر ، ط1 ، 1317هـ ج1 ، ص48 - 49 .

([1]) الشيخ محمد أبو زهرة : تاريخ الجدل ، 1934 ، ص22 .

([2]) أحمد الحربي : الماتريدية دراسة وتقويماً ، دار العاصمة السعودية ، النشرة الأولى ، 1413هـ ، ص40 .

وتدلنا المصادر والمراجع القديمة على مدى تـأثر بعـض أقطـاب الفرق الإسلامية بأقوال النصارى في عقائدهم، قال ابن قتيبة عن غـيلان: «كان قبطياً، قدرياً، لم يتكلم أحد في القـدر قبلـه ودعـا إليـه إلا معبـد الجهني»[1]. وروي عن الأوزاعي[2]. أنه قال: «أول من تكلّم في القـدر: معبد الجهني ثم غيلان بعده »[3].

قال ابن نباتة: « وقيل أول من تكلّم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصر وأخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي»[4].

وهذا بلا شكّ يدل على أن فرقة القدرية قد أخذت قولها فـي القـدر عن النصارى وأن فرقة القدرية هذه ما هي إلاّ مظهر من مظاهر التـأثير النصراني في ظهور التفرق والاختلاف بـين المـسلمين . « ولمـا كـان النصارى يقدمون أفكارهم وعقائدهم بأسلوب فلسفي، فـإن المعتزلـة فـي مجادلاتهم ومناظراتهم لهم وجدوا أنفسهم مضطرين إلـى أن يـسلكوا فـي معارضتهم لهم المسلك نفسه، لذلك فقد كانت النزعة العقلية الفلسفية إحـدى صفات المعتزلة الغالبة عليهم »[5]. وهذا ما يؤكده القول التالي: « أشد ما احتاج إليه الإسلام في ذلك العصر وهو الاستعانة بما استعانت به الأديـان المحيطة به من أسلوب متين وطريق فلسفي لإبراز ما كمن في الدين مـن القوى والفضائل ... »[6].

ويرى الدكتور علي سامي النشار أن المعتزلة والأشاعرة قد تأثروا بالنصرانية في تقسيمهم الموجودات إلى جوهر وعرض ونفيهم ذلـك عـن

([1]) ابن قتيبة : المعارف ، ص484 .

([2]) عبدالرحمن بن عمرو بن يحمد ، أبو عمرو الأوزاعي ، شيخ الإسلام ، وعالم أهل الشام ، ولد سنة ثمان وثمانين ، وكان خيراً ، فاضلاً ، مأموناً ، كثير العلم والحديث والفقه ، حجة ، توفي سنة 157هـ . قال الإمام مالك : (الأوزاعي إمام يُقتدى به) . انظر : طبقات ابن سعد ، ج7 ، ص488 . ومشاهير علماء الأمصار ، ص180 . وحلية الأولياء ، ج6 ، ص135 - 149 . وتهذيب التهذيب ، ج6 ، ص238 - 242 . وسير أعلام النبلاء ، ج7 ، ص107 . وعبدالرحمن الأوزاعي ، لطه الولي ، دار صادر - بيروت ، ص27 - 39 .

([3]) ابن قتيبة : المعارف ، ص484 .

([4]) أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن صالح ، ابن نباتة الفارقي الجذامي ، ولد بمصر سنة 686هـ . وهو من ذرية الخطيب عبدالرحمن بن محمد ، شاعر عصره ، وأحد الكتاب المسترسلين العلماء بالأدب ، توفي سنة 768هـ . راجع : البداية والنهاية ، ج14 ، ص322 . والبدر الطالع ، ج2 ، ص252 . والأعلام ، ج7 ، ص38 . ومقدمة تحقيق كتاب ابن نباتة : سرح العيون ، ص5 - 26 .

([5]) أحمد الحربي : الماتريدية دراسة وتقويماً ، ص42 .

([6]) الخياط المعتزلي : الانتصار ، القاهرة ، 1925 ، ص58 . وانظر : دلالة الحائرين ، للفيلسوف اليهودي موسى ابن ميمون ، تحقيق : حسين أتاي ، مكتبة الثقافة الدينية ، ص180 - 181 .

الله، وذلك أن النصارى كانوا في مناقشاتهم للمعتزلة والأشاعرة، كما في المغني والتمهيد[1]، يطلقون لفظ الجوهر على الله، مما دفعهم إلى بحث مسألة الجوهر والعرض[2].

وقد أثرت النصرانية أيضاً في مذهب التصوف تأثيراً واضحاً وعلى الأخص في قولهم بوحدة الوجود والحلول والاتحاد والعشق الإلهي . « وهذا الاتحاد الخاص من النصارى يشبه ... قول أهل الوحدة والاتحاد العام»[3]

وقد أثرت النصرانية في الشيعة « ففكرة ألوهية علي ورجعته وقيامه بمعجزات تشبه معجزات المسيح، وفكرة المهدي عند الشيعة، لابدَّ أن تكون ذات أثر نصراني إلى جانب الآثار الأخرى »[4].

الله عند اليهود:

قال الإسفراييني: « اعلم أن جميع اليهود في أصول التوحيد فريقان: فريق منهم المشبهة وهم الأصل في التشبيه، وكل من قال قولاً في دولة الإسلام بشيء من التشبيه فقد نسج على منوالهم ... »[5].

قال الرازي: « اعلم أن اليهود أكثرهم مشبهة، وكان بدء ظهور التشبيه في الإسلام من الروافض ... »[6]. وكانت بدعة التشبيه أول ما ظهرت في صفوف الشيعة وكان مصدرها في الأساس يهودياً .

وقال الشهرستاني في كلامه عن المشبهة: « وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النبي ﷺ وأكثرها مقتبسة من اليهود . فإن التشبيه فيهم طباع حتى قالوا: اشتكت عيناه فعادته الملائكة ... »[7].

---

(1) القاضي عبد الجبار المعتزلي : المغني ، ج5 ، ص80 وما بعدها . الباقلاني : التمهيد ، ص93 وما بعدها .
(2) النشار : نشأة الفكر الفلسفي ، ج1 ، ص99 .
(3) ابن تيمية : الجواب الصحيح ، ج3 ، ص73 .
(4) الألوسي : دراسات في الفكر الفلسفي ، ص96 .
(5) الإسفراييني : التبصير في الدين ، ص90 . وراجع أيضاً : الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ، عبد المنعم الحفني ، ص219 - 221 .
(6) الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، الكليات الأزهرية - القاهرة ، ص97 .
(7) الشهرستاني : الملل والنحل ، ص45 .

وكان عبد الله بن سبأ[1] أول من دعا إلى فكرة القداسة التي نُسبت إلى علي، وكذا القول بالرجعة والبداء والطعن في الصحابة ونقض القـرآن ... وغير ذلك من عقائد الشيعة .

والقول بنقض القرآن « فقد ابتدعته السبئية ــ أتباع عبدالله بن سـبأ اليهودي ــ كما نصّ على هذا الحسن بن محمد بن الحنفية[2] في رسـالته في الإرجاء »[3].

الألوهية في الفكر البرهمي:

« البرهمية هي ديانة الهند »[4] المنطقة القريبة من مـوطن أبـي منصور الماتريدي، « اتصل المسلمون بالهنود في العصر العباسي، فاستقدم الخلفاء الأطباء الهنود لمعالجتهم، واتصلوا بهم عن طريق البصرة سواء من فارس أو من الهند وانتشر السنديون في البصرة وغيرها ــ نظراً للـروابط التجارية القديمة بين البصرة والسند ــ ثم نقلت آراؤهم وكتبهم من الفارسية ومن السنسكريتية »[5].

وقد دوّن لنا ابن النديم في كتابه (الفهرست) « أسماء كتب الهنـد في الطب والأسماء والخرافات نقلت إلى العربية، وذكر أنه قرأ في كتـاب (ملل الهند وأديانها): «أن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلـى الهنـد

([1]) عبدالله بن سبأ : هو رأس الطائفة السبئية ، التي تقول بألوهية علي رضي الله عنه ، أصله من اليمن ، كان يهوديا وأظهر الإسلام . رحل إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة ، والشام ومصر . كان يقال له (ابن السوداء) لسواد أمه. راجع: البدء والتاريخ، ج5، ص129. لسان الميزان: ج3، ص289. الأعلام، ج4، ص88 وانظر: عبد الله بن سبأ وأثره في إحداث الفتنة في صدر الإسلام، لسليمان العودة، ص37 وما بعدها.

([2]) الحسن بن محمد بن الحنفية: الإمام أبو محمد الهاشمي المدني، يُعرف أبوه بابن الحنفية، قال ابن حبان: كان من علماء الناس بالاختلاف. وقال ابن حجر : المراد بالإرجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء الذي يعيبه أهل السنة. وتوفي رحمه الله سنة 99هـ وقيل 100هـ .

راجع : طبقات ابن سعد ، ج5 ، ص328 . وسير أعلام النبلاء ، ج4 ، ص130 . وتهذيب التهذيب ، ج2 ، ص320 .

([3]) - ضمن (كتاب الإيمان) للحافظ المدني، تحقيق: حمد الحربي، الدار السلفية، الكويت، ط1، ص148.

([4]) هناك آلهة أخرى لها عبادات خاصة ، أو كان لها عبادات خاصة مثل براهما BRAHMA الخالق ، (الذي يتميز عن براهمان BRAHMAN المطلق غير المشخص) الذي كانت له معابد لبعض الوقت ، أنشئت لتكريمه ، وأشرفت زوجته سارسفاتي SARASVATI على الموسيقى والكلام وعبدها الموسيقيون والكتاب=

= والطلاب الذين يؤدون الامتحانات ، وكان الإله سيريا SURYA أو الشمس يعبد لبعض الوقت على نطاق واسع في غرب الهند ويقوم على خدمته (ماجا - براهمين) MAGA - BRAHMINS (المجوس البراهمة) الذي يجب الربط بينهم وبين مجوس فارس . راجع : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، مجلة عالم المعرفة ، العدد 173 ، 1413هـ = 1993 ، ص181 .

([5]) الحربي : الماتريدية دراسة وتقويما ، ص56 .

ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم، وأن يكتب له عن أديانهم، فكتب له هـذا الكتاب »[1].

وقد نادت البرهمية بفكرة الحلول، حيث جعلت: « برهما حال فـي هذا العالم، أو الوجود حال في العدم، أو الخير حال في الـشر، أو الكمـال حال في النقص ... فليس (براهما) خارجاً ولا منفصلاً عن هذا العالم »[2]. وقد نقل البيروني عقائد الهند ومللها ونحلها، وقرر أن الكتب التي كتبـت في الموضوع من قبل كانت كتب حِجاج ومجادلة، كما أنه ذكر أنه تـرجم إلى اللغة العربية كتابين من كتب عقائد الهنود[3].

وبالقول (بالحلول) « رسمت البراهمية خطة الإنسان الخلقية فـي هذه الحياة، وحددت له تبعاً لذلك مهمته، وهي مهمة التخلص مـن الـشر، والتقرب من الخير، والشر هو ما له من جسم ؛ لأنه هو الذي يتبع العـالم المشاهد، والخير هو هو (الحال) المستتر فيه وهو (براهما) وقد شرحه خاصة البراهميين (بالعقل) أو (الروح) .

فمهمة البراهمي، إذن في حياته، تنحصر في أمرين: في التقرب إلى العقل عن طريق التفكير، والابتعاد عن مطالب الجسم وهي الشهوات »[4].

يقول النشار: « إن العقائد الهندية لم يكن لها أثر في الفلسفة وعلـم الكلام، إنما كان أثرها في التصوف »[5]. « وقد نسب البيروني من قبـل الصوفية إلى الهنود، وذلك لتقارب الأمر بينهم »[6]؛ وذلك لوجـود شـبه كبير « بين بعض مظاهر التصوف وما ورد في بعض الكتب الهندية الدينية من عقائد وأدعية وأناشيد . وما يصطنعه فقراء الهنـود مـن طـرق فـي الرياضة والعبادة والتفكر والذكر والمعرفة »[7]. وبفضل انسياح الجيـوش الإسلامية في آسيا ــ الوسطى ــ حتى وصلت إلـى بخـارى وسـمرقند وأفغانستان مبكراً ــ وانتشار الإسلام في ربوعها ــ حـدث اللقـاء بـين

---

(1) ابن النديم : الفهرست ، ص435 ، 438 ، 498 . د. أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص80 - 85 .
(2) د. البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، ط3 ، 1962 ، ص270 .
(3) أبو الريحان البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، الهند ، 1377هـ ، ص665 .
(4) د. البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، ص86 - 87 .
(5) د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ، ج1 ، ص219 - 222 .
(6) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ، ص25 - 26 . وانظر أيضا : المقدسي : البدء والتاريخ ، ج1 ، ص198.
(7) محمد مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الإسلام ، ص31 .

الجارين، ومن ثم بدأ التحاور في شؤون العقيدة ومن البديهي الـدفاع عمـا يؤمن به، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بما صنعه علماء الإسلام لهذا الغـرض ؛ لأنه من وظائف علم الكلام الأساسية « نصرة ما جاء به الدين من العقائـد والأحكام، ورد شبه المخالفين بالبراهين العقلية »[1]. وقد ذهب إلى ذلـك الغزالي وابن خلدون[2]. و« كان للتصوف الهندي أثره في بعض نـواحي التصوف الإسلامي، لاسيما ما يتصل منها بالطقوس الدينيـة والرياضـات الروحية وأساليب مجاهدة النفس...

ولقد كانت مدينة بلخ من أهم مراكز التصوف البوذي، ومركز لكثير من الأديرة القديمة . ولقد نشأ في هذه المدينة عدد كبير من أوائل الصوفية وشيوخها ... »[3].

مذهب الدهـريـة:

لقد أشار أبو منصور الماتريدي إلى أقاويل الدهرية وأبان فـسادها وقد ذكر «أقاويل الدهرية على ما ذكره ابن شبيب وغيره ليظهر مـذاهبهم فإن ظهورها أحد أدلة فسادها، بعد أن يعلم اتفاقهم في قـدم طينـة العـالم واختلافهم في قدم الصنعة وحدثها »[4].

وقد أجمل الماتريدي مذاهبهم وبدأها بزعم « أصحاب الطبائع أنهن أربع: حر وبرد، وندوة ويبس، واختلف العالم باختلاف الامتـزاج منهـا، واعتدال ما اعتدل منها باستواء المزاج، وعلى ذلك مجرى الشمس والقمـر والنجوم، ولم يزل يجري بمثل الذي يجري كمـا تـرى لا أول للأشـياء، وسمّوا حركاتها أعراضاً، وضربوا لباطلهم هذا مثلاً من نحـو الأصـباغ كالبياض والحمرة والسواد والخضرة، إنها عند الامتزاج على قدر الكثـرة والقلة والرقة والكثافة »[5]. وناقش أبو منصور الماتريـدي هـذا التيـار

([1]) الفارابي : إحصاء العلوم ، مطبعة السعادة - القاهرة ، 1931م ، ص70 .
([2]) الغزالي : المنقذ من الضلال ، ص6 . وابن خلدون : المقدمة ، ص458 .
([3]) أبو العلاء عفيفي : التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، ص77 - 78 . وانظر : د. علي زيعوز : الفلسفات الهندية ، ص341 ، 382 - 386 .
([4]) الماتريدي : كتاب التوحيد ، ص141 .
([5]) المصدر السابق ، ص141 - 142 .

الخطر بشتى البراهين والحِجج، وهذا جلي واضح لمن اطلع على كتابه التوحيد[1].

وقد صور القرآن الكريم عقيدة الدهرية بقوله: { مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ }[2].

ولاحظ متكلمو الإسلام أن هذا المذهب يعتبر مساوياً لإنكار الألوهية والحياة الأخرى، فهو إذاً مذهب مادي ينكر الخالق ويقول بقدم العالم .

وقد وصفهم ابن رشد « بأنهم هم الذين جحدوا الصانع ومثالهم كمثل من يرى المصنوعات، فلم يعترف بأنها مصنوعات، بل ينسب ما فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذي يحدث من ذاته »[3].

ويرى الماتريدي أن كل الفرق والملل من الأديان قد أجمعت على الواحد، فالدهرية على الرغم من اختلافهم فإنهم « اتفقوا على واحد بادئ، أو قدم طينة أو هيولي، وهو واحد حتى اعترضت فيه الأعراض وتغيرت عن الحال الأولى، وقول الثنوية أن الحكيم الرحيم العليم واحد، وأن معنى الآخر ليس هو بمعنى الربوبية، بل هو ضد معناه، إذ هو سفه كله وشر، وأهل الأديان يثبتون القدم للواحد حتى قال قوم بتجسمه من بعد، وقوم إن له ابناً، فهم على اختلافهم أجمعوا على الواحد »[4].

قال أبو منصور الماتريدي: « أعطى جميع البشر ممن له نظر التوحيد في الجملة، ثم نقض كل فريق منهم ما أعطى في الجملة بالتفسير، إلاّ فريق من أهل الإسلام لزموا ما أعطاهم الجميع .

وذلك نحو من يقول من الدهرية بالباري وقدم الباري، فجعل معه جميع الأعيان في الأزل، وفي ذلك إبطال التوحيد .

ومن يقول بالطينة والهيولي فيجعلهما واحداً ثم أتلفه، وجعل ما لا يُحصى منه على الانتقال والفناء .

---

(1) المصدر نفسه ، ص142 .
(2) من الآية 24 من سورة الجاثية.
(3) ابن رشد : مناهج الأدلة في عقائد الملة ، تحقيق وتقديم : د. محمود قاسم ، ط3 ، القاهرة ، 1972 ، ص19.
(4) الماتريدي : كتاب التوحيد ، ص118 - 119 .

ومن يقول من الثنوية بالواحد العليم فهو يذهب إلى أنه واحد الجنس، إذ يجعل جميع الخيرات أجزاء له، وذلك قول المنانية ونحوهم من الزنادقة والمجوس، فأبطلوا معنى الواحد بالقول بالجسم، إذ هو اسم ما يكثر منه .

واليهود حققوا له شبه الخلق فيكثر به العدد حتى بلغ قولهم إلى حد إمكان الولد .

والنصارى يقولون بالواحد في الكيان، والثلاثة في الأقنومات، منفى عن كل أقنوم الجزء والحد، ويقولون: كان غير مجسم ثم تجسّم، ومعلوم أن الجسم هو صورة تتجزأ وتتبعض . والمعتزلة قالوا بالأشياء في القدم، فيبطل على قولهم التوحيد .

فهذه الفرق قد ضلت في فهمها لمعنى التوحيد .

ويرى الماتريدي أن فريقاً من أهل الإسلام هو الذي أدرك معنى الواحد وأنه واحد الذات، إليه حاجات الآحاد، متعالٍ عن معنى الآحاد عما يوجب صفة الأعداد، ويتمكن فيه صفة التغير والزوال، أو الحدود والنهاية، موصوف بالقدم والتكوين والقدرة جلَّ وعزَّ عن التغير والزوال »[1].

ويلاحظ مما تقدم أن الدهرية مذهب مادي خالص، ينكر الألوهية والنبوة والبعث وهذا المذهب ديانة فارسية « وذلك سبب اهتمام أبي منصور بها وانشغاله بالرد عليها، وهكذا تتجلى الدوافع التي حدت بالماتريدي إلى أن يبيّن مفهوم الألوهية في الإسلام ليرد الشبه وليزيل الحيرة عن النفوس، وليرفع البلبلة عن العقول، إزاء التيارات الفلسفية الدخيلة وديانات الشرق في قضية بالغة الخطورة كمبدأ الألوهية »[2].

هذه هي أهم المؤثرات الخارجية النابعة من خارج المجتمع الإسلامي، كالنصارى واليهود والفرس ... وغيرهم .

يبقى معرفة المؤثرات الداخلية النابعة من داخل العالم الإسلامي ومن ظروفه الخاصة، وأهم هذه المؤثرات هي:

1 – الجهل بالدين:

([1]) المصدر السابق ، ص119 - 121 .

([2]) د. الغالي : أبو منصور الماتريدي : حياته وآراؤه العقدية ، ص88.

« الاختلاف في القواعد الكلية لا يقع ... بين المتبحرين في علم الشريعة الخائضين في لجتها العظمى، العالمين بمواردها ومصادرها، والدليل على ذلك اتفاق العصر الأول وعامة العصر الثاني ... »[1].

من هذا يتبيّن أن أصل حدوث الاختلاف والتفرق في الأمة الإسلامية إنما هو بسبب الجهل بحقيقة الدين، وأما « الجهل بمقاصد الشريعة، والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول ...، لا يكون ذلك من راسخ في العلم »[2].

ومما يؤكد ذلك ما رُوي عن إبراهيم التيمي[3] أنه قال: « خلا عمر رضي الله عنه ذات يوم، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ؟ فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة وكتابها واحد ؟ قال: فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما أنزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيما نزل، فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان كذلك اختلفوا ... »[4].

ولقد أدرك السلف ما للجهل من أثر بالغ في اختلاف الأمة وتفرقها، فحذروا منه وجاهدوا في قطع أسبابه، وروى الإمام ابن عبدالبر عن أبي الدرداء أنه قال: « ما لي أرى علماءكم يموتون وجهالكم لا يتعلمون، لقد خشيت أن يذهب الأول ولا يتعلم الآخر، ولو أن العالم طلب العلم لازداد علماً، ولو أن الجاهل طلب العلم لوجد العلم قائماً، ما لي أراكم شباعاً من الطعام جياعاً من العلم »[5].

ومن أهم الأسباب التي تؤدي إلى الجهل الذي يحدث عنه التفرق والاختلاف: أن يعتقد الإنسان في نفسه أو يعتقد فيه أنه من أهل العلم

---

(1) الشاطبي : الاعتصام ، طبعة دار المعرفة ، ج2 ، ص172 ، 235 .
(2) المصدر السابق ، ج2 ، ص182 .
(3) إبراهيم التيمي : هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي ، كان أبوه يزيد من أئمة الكوفة ، وكان هو شابا صالحا قانتا لله عالما فقيها كبير القدر واعظاً ، يُقال قتله الحجاج ، وقيل : بل مات في حبسه سنة اثنين وتسعين ، وقيل : سنة أربع وتسعين . ولم يبلغ إبراهيم - رحمه الله - أربعين سنة .
راجع : طبقات ابن سعد ، ج6 ، ص285. سير أعلام النبلاء ، ج5 ، ص60 - 62. تهذيب التهذيب، ج1، ص176 .
(4) الشاطبي : الاعتصام ، ج2 ، ص183 .
(5) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ص579 .

والاجتهاد في الدين ولم يبلغ تلك الدرجة فيعمل على ذلك، ويعد رأيه رأياً وخلافه خلافاً ... فتراه آخذاً ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها، وعليه نبه الحديث الصحيح أنه (صلى الله عليه وسلم) قال: (لا يقبض الله العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[1].

وقال الحسن البصري: « العامل على غير علم كالسائر على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بترك العبادة، واطلبوا العلم طلباً لا يضر بترك العلم، فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا ...»[2]. قال الإمام الشاطبي: « يعني الخوارج ... لأنهم قرأوا القرآن ولم يتفقهوا ... »[3].

2 ــ الجهل باللغة العربية واصطلاحاتها:

ومن المؤثرات الداخلية القوية في حدوث الفرقة والاختلاف بين المسلمين عدم فهم اللغة العربية فهماً صحيحاً كما قعدت عليه قواعدها، وذلك « أن الله عز وجل أنزل القرآن عربياً لا عجمة فيه، بمعنى أنه جار في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب، قال الله تعالى: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً }[4]... وكان المنزل عليه القرآن عربياً أفصح من نطق بالضاد، وهو محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) وكان الذين بعث فيهم عرباً أيضاً، فجرى الخطاب به على معتادهم في لسانهم ... وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها »[5].

([1]) البخاري : في العلم ، باب كيف يقبض العلم ، ج1 ، ص194 . ومسلم : في العلم ، باب رفع العلم وقبضه الحديث رقم 2673 .
([2]) الشاطبي : الاعتصام ، ج2 ، ص172 - 173 .
([3]) الشاطبي : الاعتصام ، ج2 ، ص175 .
([4]) من الآية 3 من سورة الزخرف ، : .
([5]) الشاطبي : الاعتصام ، ج2 ، ص293 - 294 .

وباتساع رقعة الفتوحات دخل كثير من العجم في البلاد المفتوحة في الإسلام، وأرادوا أن يفهموا القرآن بلغتهم ومنطقهم، فوقعوا في التخبط والاضطراب وعدم الفهم الصحيح لمعاني القرآن .

قال الإمام الشافعي رحمه الله: « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس »[1]. وقد « أشار الشافعي بذلك إلى ما حدث في زمن المأمون من القول بخلق القرآن ونفي الرؤية وغير ذلك من البدع، وأن سببها الجهل بالعربية والبلاغة الموضوعة فيها من المعاني والبيان والبديع ... »[2].

ولو استقرينا أهل البدع من المتكلمين وغيرهم، وجدناهم من أبناء العجم، ممن ليس لهم أصالة في اللسان العربي « فغيلان الدمشقي وهو أول من تكلم في القدر وخلق القرآن كان مولى لآل عثمان بن عفان، والجعد بن درهم كان مولى بني الحكم، وجهم ابن صفوان كان من موالي ابن راسب، وكذا واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد »[3] وغيرهم من أبناء العجم .

ومما يؤكد أيضاً أثر الجهل باللغة العربية واصطلاحاتها في نشأة الفرق « أن المرجئة قد نجم خطؤهم من الجهل باصطلاحات اللغة العربية، فزعموا أن الإيمان لغة هو التصديق، والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان، أو بالقلب فقط، فالأعمال عندهم حسب هذا الفهم المنحرف ليست من الإيمان»[4].

3 ـ اتّباع الهوى:

واتباع الهوى هو أصل الزيغ عن الصراط المستقيم، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ }[5].

---

(1) السيوطي : صون المنطق ، ص15 .
(2) المصدر السابق ، والصفحة نفسها .
(3) ابن نباتة المصري : سرح العيون ، ص289 ، 293 . والمقريزي : الخطط ، ج2 ، ص345 ، 351 ، 357 .
(4) الحربي : الماتريدية دراسة وتقويما ، ص29 .
(5) سورة آل عمران ، الآية : 7 .

« وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما ... وذكرت الخوارج وما يلقون في القرآن ... فقال: يؤمنون بمحكمه ويهلكون عند متشابهه، وقرأ ابن عباس الآية »[1].

وإتباع الهوى هو سبيل المشركين وطريقهم وقد وصفهم الله تعالى بقوله: { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ }[2].

« وقد كان السلف رحمهم الله يسمون أهل البدع والآراء المخالفة للسنة بأهل الأهواء، وذلك لأنهم تركوا الكتاب والسنة وجعلوا معولهم عقولهم، وأخذوا في تسوية الكتاب عليها، ولم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك، فحرفوا نصوص الكتاب بتأويلاتهم الباطلة، وأساءوا الظن بما صح عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وحسنوا ظنهم بآرائهم الفاسدة، جاء الشرع أو لا، بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل »[3].

وقال الإمام ابن تيمية: « وأما أهل البدع فهم أهل أهواء وشبهات يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى، فكل فريق منهم قد أصل لنفسه أصل دين وضعه، إما برأيه وقياسه الذي يسميه عقليات، وإما بذوقه وهواه الذي يسميه ذوقيات، وإما بما يتأوله من القرآن ويحرف فيه الكلم عن مواضعه، ويقول إنه إنما يتبع القرآن كالخوارج، وإما بما يدعيه من الحديث والسنة ويكون كذباً وضعيفاً كما يدعيه الروافض من النص والآيات، وكثير ممن يكون قد وضع دينه برأيه أو ذوقه يحتج من القرآن بما يتأوله على غير تأويله ويجعل ذلك حجة لا عمدة، وعمدته في الباطن على رأيه كالجهمية والمعتزلة في الصفات والأفعال ... »[4].

« ولما بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان وفلاناً نطقا في القدر، أرسل إليهما، وقال: ما الأمر الذي تنطقان به ؟ فقالا: هو ما قال الله يا أمير المؤمنين، قال: وما قال الله قال: { هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ

---

(1) الشاطبي : الاعتصام ، ج2 ، ص176 ، 179 ، 180 . ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ، ص344 - 345. درء تعارض العقل والنقل ، ج7 ، ص157 - 158 . إغاثة اللهفان ، ج2 ، ص134 .
(2) سورة النجم ، الآية : 23 .
(3) الحربي : الماتريدية دراسة وتقويماً ، ص31 .
(4) ابن تيمية : النبوات ، طبعة دار الكتب العلمية ، ص129 .

يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً }[1]، ثم قال: { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }[2]، ثم سكتا .

فقال عمر: اقرأ، فقرأ حتى بلغا: { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... }[3]إلى آخر السورة .

قال: كيف تريان يا بني الأتانة، تأخذان الفروع وتدعان الأصول .

وكان غيلان قد تاب على يد عمر بن عبد العزيز، فقال عمر: اللهم إن كان كاذباً فلا تمته حتى تذقه حد السيف، فلما توفي عمر بن عبد العزيز رحمه الله، رجع غيلان مما كان عليه، فأرسل إليه هشام بن عبدالملك وناظره الأوزاعي ثم أمر هشام بقتله»[4].

ولاشكَّ أن هذا النص يدل على أن اتباع الهوى كان له دور كبير في ظهور الاختلاف في الأمة الإسلامية .

4 ــ ظهور الجدل في الدين:

قال الإمام أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة رحمهما الله: « الخصومة في الدين بدعة، وما ينقض أهل الأهواء بعضهم على بعض بدعة محدثة . لو كانت فضلاً لسبق إليها أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه، فهم كانوا عليها أقوى ولها أبصر . وقال الله تعالى: { فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ }[5]، ولم يأمره بالجدال، ولو شاء لأنزل حججا، وقال له: قل كذا وكذا »[6].

وقال ابن قتيبة: « كان المتناظرون في الفقه يتناظرون في الجليل من الواقع والمستعمل من الواضح وفيما ينوب الناس فينفع الله به القائل والسامع، فقد صار أكثر التناظر فيما دقّ وخَفِيَ، وفيما لا يقع وفيما قد انقرض ... وصار الغرض فيه إخراج لطيفه وغوصاً على غريبه وردّاً على متقدم ... وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون في معادلة الصبر

---

(1) سورة الإنسان ، الآية : 1 .
(2) سورة الإنسان ، الآية : 3 .
(3) سورة الإنسان ، الآيتان : 29 - 30 .
(4) ابن نباتة المصري : سرح العيون ، ص282 ، 291 - 292 .
(5) سورة ال عمران ، الآية : 20 .
(6) الفتاوى ، ج16 ، ص475- 476 .

بالشكر وفي تفضيل أحدهما على الآخر وفي الوساوس والخطرات ومجاهدة النفس وقمع الهوى فقد صار المتناظرون في الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر فهم يتخبطون في العشوات قد تشعبت بهم الطرق وقادهم الهوى بزمام الردى »[1].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: « عليكم بالسنة والحديث وما ينفعكم، وإياكم والخوض والمراء فإنه لا يفلح من أحب الكلام، وقال: لا أحب لأحد أن يجالسهم، ويخالطهم، أو يأنس بهم، فكل من أحب الكلام لم يكن آخر أمره إلا إلى البدعة فإن الكلام لا يدعوهم إلى خير، فلا أحب الكلام ولا الخوض ولا الجدال، وعليكم بالسنة والفقه الذي تنتفعون به، ودعوا الجدال وكلام أهل الزيغ والمراء، أدركنا الناس وما يعرفون هذا ويجانبون أهل الكلام، وقال: من أحب الكلام لم يفلح، وعاقبة الكلام لا تؤول إلى خير»[2].

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال(صلى الله عليه وسلم): (ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا:{ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}[3] [4]

و« قيل لعبد الرحمن بن مهدي[5] أن فلاناً صنف كتاباً يرد فيه على المبتدعة، قال بأي شيء بالكتاب والسنة ؟ قال: لا، لكن بعلم المعقول والنظر، فقال: أخطأ السنة ورد بدعة ببدعة »[6].

فلما وقع الناس في الجدل ولم يلتزموا بمنهج السلف تفرقوا فرقاً وأحزاباً، كل حزب بما لديهم فرحون، قال عمرو بن قيس[7]: « قلت للحكم بن عتبة[8]: ما اضطر الناس إلى الأهواء، قال: الخصومات »[1]. ولقد

---

(1) ابن قتيبة : الاختلاف في اللفظ ، طبعة دار الكتب العلمية ، ص10 - 11 .

(2) نعمان الألوسي : جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ، طبعة المدني ، ص134 . ابن مفلح : الآداب الشرعية طبعة قرطبة ، ج1 ، ص199 .

(3) سورة الزخرف ، الأية : 58 .

(4) الترمذي : في التفسير ، باب تفسير سورة الزخرف ، حديث رقم (3250) ، وقال : حسن صحيح . وأحمد في المسند ، ج5 ، ص252 ، 256 . وابن أبي الدنيا : كتاب الصمت ، تحقيق : نجم خلف ، ص279.

(5) هو أبو سعيد عبدالرحمن بن مهدي بن حسان العنبري الأزدي ، مولاهم البصري ، الإمام الناقد المجود ، سيد الحفاظ ، ولد سنة 135هـ ، وتوفي في البصرة سنة 198هـ . طبقات ابن سعد ، ج7 ، ص297 . تهذيب التهذيب ، ج6 ، ص279 . تاريخ بغداد ، ج10 ، ص240 . سير أعلام النبلاء ، ج9 ، ص192 .

(6) قوت القلوب ، ج2 ، ص50 . صوت المنطق ، ص131 .

(7) عمرو بن قيس الملائي ، ثقة متقن عابد ، روى عنه عطية العوفي ، توفي رحمه الله سنة 146هـ .
راجع : تهذيب التهذيب ، ج8 ، ص92 .

(8) أبو محمد الحكم بن عتبة الكندي ، ثقة ثبت فقيه ، توفي رحمه الله سنة 146هـ .

حاول أهل الأهواء والبدع أن يقحموا السلف في ما هم فيه من الجدل فباءوا بالفشل .

« وكان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار الأعمى[2]، وعبدالكريم بن أبي العوجاء[3]، وصالح بن عبد القدوس[4]، ورجل من الأزد ... فكانوا يجتمعون في منـــزل الأزدي ويختصمون عنده، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال، وأمـــا عبـــد الكريم وصالح صارا إلى الثنوية[5]، وأما الأزدي فمال إلى الـــسمنية[6]، وهو مذهب من مذاهب أهل الهند، وأما بشار فبقي متحيراً، فقيل: إنه قـــال بعد بمذهب الثنوية وعدم الرجعة »[7].

5 ــ الأثـــر السياسي:

وقد تمثل ذلك في الخلافات الداخلية والفتن والحروب التـــي نبتـــت على إثرها بعض الفرق السياسية، فبعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضـــي الله عنه وقعت الفتنة، التي أدت إلى موقعة صفين بين علي ومعاوية ومسألة التحكيم وظهور المعارضين الذين سموا بالخوارج « وكانت ذروتها لما حكم

راجع : تهذيب التهذيب ، ج8 ، ص98 .

(1) عبدالله بن أحمد : السنة ، تحقيق : القحطاني ، دار ابن القيم ، ج1 ، ص137 . الآجري : الشريعة ، ص58

(2) بشار بن برد ، أبو معاذ البصري الضرير ، من موالي بني عقيل ، ولد أعمى ، وكان من أشعر الناس ، اتُّهم بالزندقة ، وقيل : كان يفضل النار ، وينتصر لإبليس ، هلك سنة 167هـ ، وبلغ التسعين .

راجع : تاريخ بغداد ، ج7 ، ص112 . والبداية والنهاية ، ج10 ، ص149 . ولسان الميزان ، ج2 ، ص15 . وسير أعلام النبلاء ، ج7 ، ص24 .

(3) عبد الكريم بن أبي العوجاء ، خال معن بن زائدة ، زنديق ، قال ابن عدي : لما أخذ لتُضرب عنقه ، قال : لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرّم فيها الحلال وأحلل الحرام . قتله محمد بن سليمان العباسي الأمير بالبصرة بعد الستين ومائة .

راجع : ميزان الاعتدال ، ج2 ، ص644 . ولسان الميزان ، ج4 ، ص51 - 52 .

(4) صالح بن عبد القدوس ، أبو الفضل الأزدي ، قتله المهدي على الزندقة ، قال المرزباني : كان حكيم الشعراء ، زنديقاً متكلماً يقدمه أصحابه في الجدال عن مذهبهم .

راجع : ميزان الاعتدال ، ج2 ، ص297 - 298 . ولسان الميزان ، ج3 ، ص173 - 174 .

(5) الثنوية : هم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان . انظر : الشهرستاني : الملل والنحل ، ص115. والرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، طبعة الكليات الأزهرية ، ص138 .

(6) السمنية : نحلة بوذية من نحل الهند ، ادّعى أصحابها بأن العالم قديم ، وقالوا : لا وجود إلا ما وقعت عليه الحواس ، كما أنكروا الأعراض .

انظر : الحميري : الحور العين ، ص139 . والتبصير في الدين ، ص131 . والبيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ، ص15 .

(7) ابن نباتة المصري : سرح العيون ، ص300 . وانظر : لسان الميزان ، ج4 ، ص51 - 52 .

الحكمان وافترق الناس على غير اتفاق، وعلى إثر ذلك حدثت أيضاً بـــدع التشيع ... »[1].

خاتمـــة:

ولا أعتقد أن الفتنة كانت السبب المباشر لظهور بدعـــة الخـــوارج وبدعة الشيعة، أذ إن هذه المعتقدات قد اختمرت في أذهان معتقـــديها مـــن الطائفتين قبل ذلك بزمن خصوصاً بعد دخول الكثير من المعتقدات القديمـــة مع أصحابها ممن أسلموا من شعوب البلاد المفتوحة، ولم تكن الفتنة ســـوى مناسبة لظهور تلك المعتقدات إلى الساحة لاستقطاب من دخل في الإســـلام ولم يملأ الإيمان قلوبهم بعد .

([1]) ابن تيمية : منهاج السنة ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، ج1 ، ص306 . وانظر : النشار : نشأة الفكر الفلسفي ، ج1 ، ص225 .